

قناع من حجر.. قناع من قماش: تاريخ فلسطيني لا يُمحى

26 نوفمبر 2017

الأكثر قراءة

راصد

الطابو الإسرائيلي
الجديد: نكبة صامئة
وتمهيد لمصادرة نحو
70% من أراضي
مناطق "ج"

1

تقارير

إبادة المستقبل.. كيف
تصنع "إسرائيل" جيلاً
مشوهاً في غزة؟

2

راصد

فرض السيادة
الإسرائيلية على
المناطق "ب" في
الضفة: ملف صحراء
القدس

3

تقارير

اغتصاب وتعذيب
جنسي.. محررو غزة
يروون لـ"الترا
فلسطين" فظائع
السجون

4

تقارير

الجهة الديمقراطية
لـ"الترا فلسطين":
مصر عرضت على
الفصائل خطة من 5
بنود وهذه تفاصيلها

5



أقنعة حجرية فلسطينية قديمة، وبين صورتين شبّان يرتدون أقنعة قماشية، خلال مواجهات مع جيش الاحتلال في كفر قدوم شرق قلقيلية.



حمزة العقرباوي
باحث في التراث
الفلسطيني



لم تكن الأقنعة مجرد أدوات تنكر أو زينة طقسية، بل كانت، في قلب فلسطين، امتداداً لوجه الإنسان الأول. من الكهوف الحجرية في الأغوار قبل 9 آلاف عام، إلى شوارع رام الله ومخيّمات المقاومة، تمتدّ حكاية الفلسطيني مع الأقنعة، وتتوارث الأقنعة مهمتها: حماية الوجوه، وإرهاب الأعداء، وحفظ الذاكرة، وحراسة الأرواح، وتمثيل الأسلاف، واستدعاء المجد، في وطن تُسرق آثاره، لكن لا تُنتزع ذاكرته.

الفلسطيني المُلثم بعد 10 آلاف سنة: الحفيد يُشبه جدّه. لا تقتصر الأقنعة في الثقافة الفلسطينية على وظيفة التخفي، بل تمتد جذورها إلى أولى الحضارات الزراعية في العالم

من بين وظائف الأقنعة المتعددة، تبرز الوظيفة الحربية كأشدّها تأثيرًا وأقدمها حضورًا. فقد اعتاد المحاربون منذ العصور الأولى تغطية وجوههم بأقنعة من جلود الحيوانات، لإرهاب خصومهم وإخفاء ملامحهم خلف هيئة أكثر قسوة ووحشية. ثم تطوّرت الأقنعة من أدوات للتهويل إلى أدوات للحماية، فصارت تُصنع من الخشب والمعادن لحماية الوجوه من السهام والرماح وضربات السيوف، وظلّت جزءًا لا يتجزأ من عدة القتال وطقوسه.



أقنعة فلسطينية قديمة في متحف إسرائيل بالقدس

اللثام الفلسطيني: قناعٌ يولد من الخطر

ورغم تعدّد وظائف الأقنعة تاريخياً، إلا أن بعض استعمالاتها تطغى أحياناً وتختزلها في شكل واحد، كما هو الحال في السياق الفلسطيني. فقد تحوّلت الكوفية القماشية إلى لثامٍ مقاوم، يُخفي ملامح الوجه ويمنح من يرتديها هوية جديدة يولّدها القناع نفسه. هنا، لا يُستخدم القناع للزينة أو الطقس، بل كضرورة أمنية فرضتها ظروف المواجهة مع الاحتلال. خلف هذا اللثام، يصبح الوجه لغزاً، والهوية سلاحاً، والاختفاء شكلاً من أشكال الحضور. ومع الوقت، اتخذ هذا القناع أشكالاً وألواناً متعددة، حتى بات علامة فارقة في وعي الفلسطيني المقاوم، وتاريخ رموزه.



أقنعة فلسطينية قديمة

ولم يكن قناع الفلسطيني وليد المواجهة الحديثة مع المشروع الصهيوني، بل هو امتدادٌ لتاريخ طويل تعود جذوره إلى أولى الحضارات الزراعية التي نشأت في هذه البلاد قبل أكثر من 10 آلاف عام. فمنذ ذلك الحين، طوّر الإنسان في فلسطين أشكالاً متعددة من الأقنعة، تراوحت بين الحجر المنحوت في كهوف الجبال، والقماش الملفوف على الوجه في ساحات النضال. وبين هذين الشكلين، تمتدّ سرديّة القناع كأداة للهوية والحماية والاستمرار.

من الأقنعة الحجرية التي صنعها أيادي الفلاحين الأوائل قبل 9 آلاف عام، إلى لثام المقاوم في الانتفاضات الفلسطينية، تتجلى رمزية القناع كأداة للنجاة، والإرث، والحضور المتجدد للهوية في وجه الغياب

وتروي المصادر التاريخية عن ثائر يُدعى أبو حرب تيم اليماني، قاد تمردًا في عهد الخليفة المعتصم العباسي (227-228 هـ)، وكان يُعرف بـ"المبرقع" لأنه أخفى ملامح وجهه خلف قناع. دعا إلى الثورة، فاجتمع حوله أكثر من 100 ألف من الفلاحين والناقمين في جبال الغور والواد الأحمر ومناطق فلسطين. لكن جيش المعتصم تحرّك لقمع حركته، وهُزم عند مدينة الرملة، وأسر أبو حرب جريحًا ونُقل إلى بغداد. لقد شكّل قناعه رمزًا لعصيانٍ أوسع من أن يُرى وجه قائده.

بعد قرون طويلة، وفي النصف الأول من القرن العشرين، استعاد الأديب الفلسطيني يعقوب العودات رمزية اللثام، فجعل منه توقيعهُ الأدبي، ونشر مقالاته في الصحف والمجلات تحت اسم "البدوي المُلثَّم". استوحى الاسم من مشهدٍ عالق في ذاكرته، حين رأى في شبابه بدويًا ملثَّمًا يسير في شوارع رام الله بوقارٍ وهيبة، فأثّرت فيه تلك الصورة العتيقة، وقرّر أن يجعلها قناعًا رمزيًا لكتاباتهِ.

هذا اللثام نفسه، ارتداه الثائر الفلسطيني في الثورة الكبرى (1936-1939)، حين فرضت قيادة الثورة على الرجال ارتدائه كجزء من استراتيجية التخفي. كانت الكوفية رمزًا يوميًا، تتحوّل في لحظة إلى لثام يُخفي الوجوه عن أعين الإنجليز، ويجعل من كل رجل احتمالًا للثائر.

بذلك، لم يعد اللثام مجرد غطاء، بل أصبح إعلاناً صامتاً بالانتماء إلى صفوف المقاومة.

من الحجر إلى الذاكرة: وجوه محفورة في التراب

في عام 1973، وبينما كان فلاح فلسطيني يحرق أرضه في قرية "دومة" غرب الخليل، عثر على مغارة تحتوي على قطع أثرية، من بينها قناع حجري محفوظ بحالة جيدة. لم تُقدّر قيمة الاكتشاف، فباعه لتاجر آثار، سرعان ما أوصله إلى الجنرال الإسرائيلي موشي ديان، لصّ الآثار الأشهر، المتهم بسرقة آلاف المقابر والمواقع الأثرية في فلسطين وسيناء. كان القناع بالنسبة له بداية شهية مفتوحة على تاريخ مسروق.



موشي ديان سارق الآثار العربية

**الجنرال الإسرائيلي موشي ديان
سرق آلاف المقابر والمواقع الأثرية
في فلسطين وسيناء، واشترى آثاراً
من فلسطينيين**

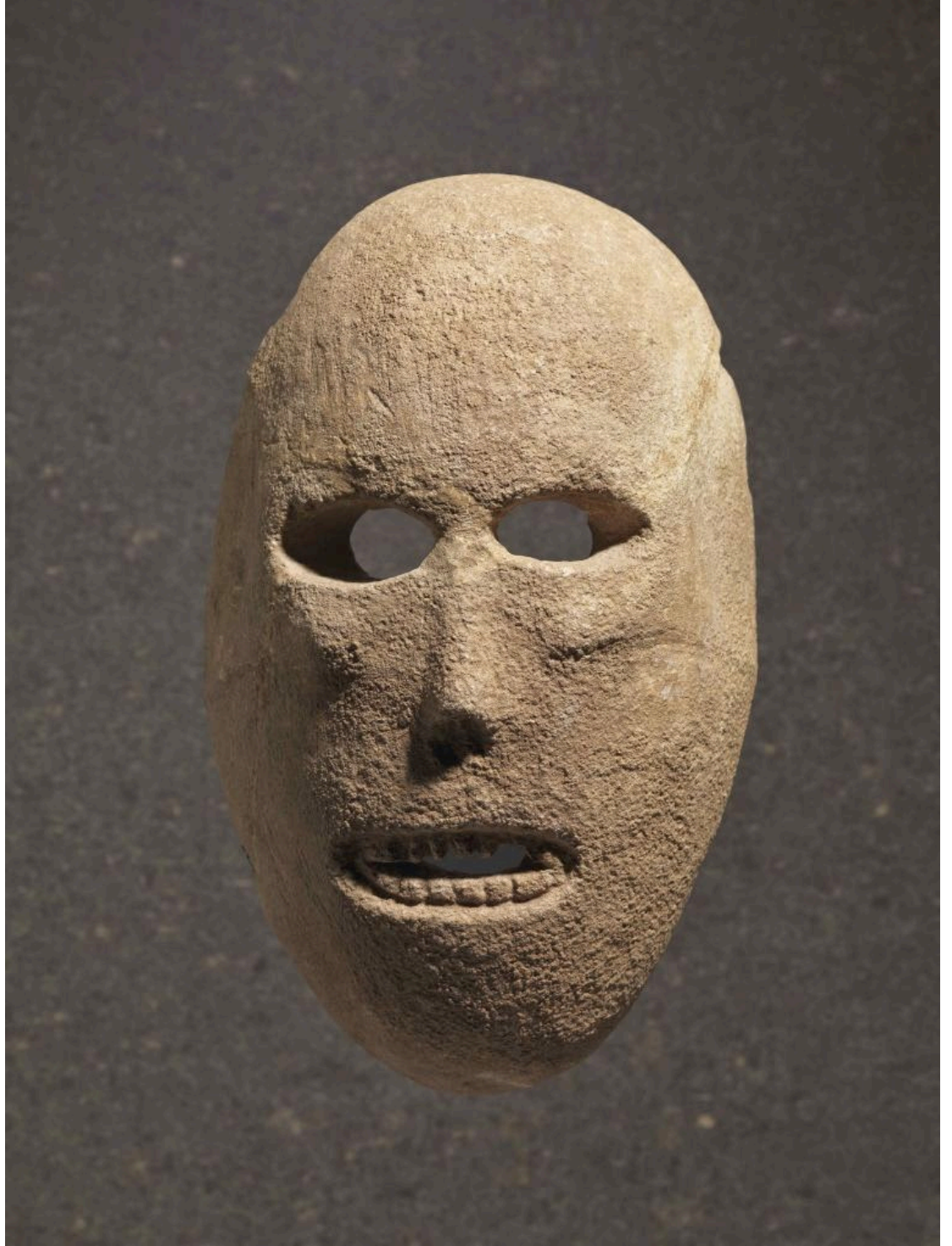
بعد عشر سنوات من ذلك، وتحديدًا في نيسان/أبريل 1983، عثرت بعثة أثرية من جامعة "هارفارد" أثناء تنقيبها في "تلال الصحراء" على كهف غامض، بدا وكأنه مكان شعائري استخدمه الفلاحون الأوائل في فلسطين، أو مستودعًا لحفظ مقتنيات الأسلاف.

كان الكهف غنيًا بالقطع الأثرية: سلال منسوجة من الحبال، خرزات خشبية، سكاكين صوان، رؤوس سهام، مناجل، أشكال محفورة من العظام، جماجم بشرية موشومة بالسواد، وأقمشة مطرزة يُعتقد أنها استخدمت في طقوس دينية. وكان الاكتشاف الأهم: أجزاء من قناعات حجريين وجدائل شعر طبيعي، تبين أنها تعود لرجال بالغين، إذ بدت على الأقنعة ملامح شوارب ولحى دقيقة، ما يعكس براعة الإنسان القديم في محاكاة الوجوه.



مقتنيات الفلسطيني قبل 9 آلاف سنة

لم تتوقف الاكتشافات عند ذلك الحد. فقد توالى بعدها عمليات السرقة الفردية والتنقيبات المنظمة التي طالت السفوح الشرقية لجبال القدس ومناطق البحر الميت، إلى أن أعلن أخيرًا عن اكتشاف 15 قناعًا حجريًا تعود للعصر الحجري الحديث، أي قبل نحو 9 آلاف عام. وتعدّ هذه الأقنعة من أقدم ما عُثر عليه في العالم. عرض الاحتلال الإسرائيلي 12 قناعًا منها في "متحف إسرائيل" بالقدس المحتلة، ضمن محاولاته الدائمة لاحتكار الرواية وسرقة التاريخ.



عرض قناع فلسطيني قديم في متحف إسرائيلي بالقدس

خضعت الأقنعة المعروضة في المتحف لدراسات مكثفة أجراها علماء آثار ومختصون إسرائيليون، ونُشرت حولها أبحاث علمية مطوّلة. لكن نتائج تلك الدراسات لم تأتِ كما تمنّى الاحتلال؛ فقد أثبتت، بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه الأقنعة تنتمي إلى أولى الحضارات البشرية التي نشأت في فلسطين، مؤكدةً مرة أخرى أن هذه الأرض كانت مهداً للتاريخ، لا هامشه.

علماء آثار إسرائيليون أجروا دراسات على أقنعة عثروا عليها في فلسطين معروضة في أحد متاحف القدس، فوجدوا أنها تنتمي للحضارة البشرية الأولى في فلسطين

صُنعت تلك الأقنعة من الحجر الجيري، وهو ما منحها قدرة عالية على مقاومة الظروف شبه الصحراوية الجافة، وظلّت محفوظة لآلاف السنين. تتراوح أوزانها بين كيلو غرام واثنين، وتتميّز بفتحات دائرية للعينين، وأنوف صغيرة، وأفواه ذات أسنان بارزة، ما يمنحها ملامح قريبة من الجمجمة البشرية. ووفقاً للعلماء الذين درسوها على مدى عقدٍ كامل، فقد كانت الأقنعة في الأصل ملوّنة، إذ لا تزال آثار الطلاء ظاهرة على بعضها، ما يشير إلى عناية فنية وروح طقسية عميقة في صناعتها.



وجه الفلسطيني قبل 9500 سنة، هكذا جرى جرى إعادة تخيله

كُشف على أطراف الأقنعة عن ثقوب صغيرة، يُرجّح أنها استُخدمت لثبتيها على الوجه، أو ربما لحشوها بجداول شعر تمنحها مظهرًا بشريًا أكثر واقعية. وتُظهر الدراسات أن لكل قناع قياساته الخاصة وتفصيله الفريدة،

ما يشير إلى أنها صُنعت غالبًا على قياس وجوه أشخاص حقيقيين، لا كرموز عامة. هذه الأقنعة لم تكن مجرد منحوتات، بل وجوه حقيقية لأناس عاشوا هنا، تم استحضارهم عبر الحجر والملامح.

الحضارة الأولى: أقنعة الزراعة وملامح الفلسطيني الأول

حين نتحدث عن الأقنعة الفلسطينية الأولى، التي تعود إلى أكثر من 9 آلاف عام، فإننا نعود إلى الحضارة النطوفية، التي انبثقت من أرض فلسطين وشكّلت إحدى أولى الحضارات الإنسانية على الإطلاق. في هذا العصر، تحوّل الإنسان من حياة الصيد والترحال إلى الزراعة والاستقرار، فأنشأ القرى على ضفاف الوديان وسكن السهول، وبدأ إنتاج الغذاء بدلًا من الاكتفاء بجمعه.

يرى المؤرخون أن فلسطين كانت المهد الأول للزراعة، ومنها انتقلت هذه المعرفة الثورية إلى بلاد الشام ثم العراق ومصر، لتبدأ بها رحلة الاستقرار البشري وبناء المجتمعات. وفي قلب هذه التحوّلات، ظهرت الأقنعة، حاملة رموزًا للأسلاف، وطقوسًا للحياة والموت والهوية.

تم العثور على أقنعة نادرة صنعها مزارعون قدامى، وتشبه إلى حدّ كبير ملامح وجه الفلسطيني الأول الذي عثر على جمجمته في تل السلطان في أريحا

تشير دراسات المختصين إلى أن هذه الأقنعة النادرة صُنعت على يد مزارعين فلسطينيين قدامى، بعد أن تخلّى أسلافهم عن حياة الصيد. استقرّ هؤلاء في مناطق الأغوار وتلال السفوح الشرقية وجبال الخليل والصحراء الجنوبية، وشكّلوا نواة أول حضارة مستقرة في فلسطين.



جمجمة فلسطيني قبل 9500 سنة في تل السلطان بأريحا

وتكشف الملامح المنحوتة في تلك الأقنعة عن تشابه لافت مع وجه الفلسطيني الأول، الذي عُثر على جمجمته في تل السلطان بمدينة أريحا، وأُعيد تشكيل ملامحه بدقة بتقنية ثلاثية الأبعاد، لتكشف عن وجهٍ يعود إلى ما قبل 9500 عام، لكنه لا يزال حيًّا في تفاصيلنا.

لكن يبقى السؤال الجوهرى: لماذا صنع أجدادنا هذه الأقنعة الحجرية المتقنة التي تُشبه ملامح الوجه البشري؟

تعددت الفرضيات، وتشير الدراسات التي تناولت الأقنعة الخمسة عشر إلى أنها ربما صُنعت لتجسيد صور الأسلاف أو الأبطال، أولئك الذين شكّلوا ذاكرة الجماعة وأسسوا بداياتها. قد تكون استُخدمت في طقوس دينية واحتفالات جماعية، يستحضر فيها الناس وجوه من رحلوا ليبقوا حاضرين عبر القناع. وربما حملت أيضًا بُعدًا رمزيًا للقوة، إذ يرتديها الأحياء ليتقمصوا وجوه أبطالهم الأقوياء الذين حُكيت عنهم القصص، وصارت ملامحهم تعويذة للحماية والنصر.

ما تبقى من الأقنعة: من المتحف إلى ساحة المواجهة

وإن صحت فرضية أن الأقنعة كانت تُجسد وجوه الأسلاف، فهي ليست غريبة على الذاكرة العربية. فالمؤرخون يرون أن أصنام العرب في الجاهلية، مثل ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، لم تكن في بداياتها آلهة، بل تماثيل حُصصت لتخليد ذكرى رجال صالحين نظر إليهم الأبناء باحترام

وتقدّيس. ومع مرور الزمن، تحوّلت هذه الوجوه المكرّمة إلى رموز تُعبد، وهو ما لم يكن الغرض الأصلي منها.

الأقنعة الفلسطينية التي سُرقت على يد الاحتلال -أولئك الذين صُنعت لإرهابهم- تحمل في جوهرها بُعداً روحياً متّصلاً بذكرى الأسلاف. هذا المعنى العميق لا يمكن للاحتلال أن يعيه، ولا أن يشعر به، ولهذا يظن أنه حين يضع هذه الأقنعة في المتاحف ويُجردها من سياقها وأهلها، يمنحها مجداً جديداً. لكنه لا يدرك أن الفلسطينيين ما زالوا يُحيون وجوه أجدادهم، ويستنتقون أرواحهم، ويعيدون الحياة إلى أقنعتهم عبر استمرار ارتدائها في ميادين النضال، حتى استعادة الأرض والذاكرة.

فالكوفية التي يُطوّق بها المقاوم رأسه، ليست قمائشاً فقط، بل هي امتداداً رمزي لأقنعة صنعها بنّاؤو الحضارة قبل عشرة آلاف عام. وإن سرق اللصوص أرضنا وآثارنا في غفلة، فإن المجد الذي تركه الأجداد باقٍ، يلبسه الأبناء، ويُخفي وجوههم حين يلزم، لكنه يُعلن عنهم حين يحين وقت الحقيقة.

الكلمات المفتاحية

تاريخ الأقنعة

اللثام

الكوفية الفلسطينية

الأقنعة الحجرية في فلسطين

سرقة الآثار

موشي ديان

المزيد من قسم منوعات



رفضاً لتبويض صورة
إسرائيل.. إسبانيا
وأيرلندا وسلوفينيا
وهولندا تقاطع مسابقة
يوروبيجن

يُذكر أن روسيا مُنعت من
المشاركة بعد غزوها أوكرانيا...

